منارة و.. الدمشقي

السبت 2012/3/24 المصدر : الانباء عدد المشاهدات 3187

بقلم : فيصل الزامل

ومن أخبار دمشق، زمن الخليفة المأمون، أن فتنة نشبت فيها وكان منارة من رجال المأمون في دمشق فلما أدركته أعمال الشغب فر هاربا بين المساكن والجدران حتى انتهى الى طريق مسدود، وإذا برجل جالس أمام بيته فقال له: «احقن دمي، فإنهم إن أدركوني قتلوني أمامك الآن» فأدخله الرجل الى بيته وسار به نحو غرفة زوجته وأمرها أن تستتر وأن تجعله داخل الحرم، ثم جلس خارج البيت، فلما رآه القوم صاحوا به: «فر منا رجل وليس له طريق غير دارك، افتح لنا». لم يعثروا عليه في سائر الغرف فلما دخلوا غرفة زوجته صاحت و.. ولولت.. فتركوها وغادروا.

يقول منارة: «والله ما رأيت أكرم منه ولا أشد مروءة، فوالله ما سألني عن خبري ولم يعرف مني إلا اسمي الأول، ومازال يتعهدني بالطعام وحسن المقام حتى تذممت من طول مقامي عنده وأردت الخروج فقال لي: «انهم لايزالون يبحثون عنك ولست علينا بثقيل، يسعك ما يسعنا حتى يفرج الله الغمة».. يقول منارة «فبقيت على هذا الحال ثلاثة أشهر، وفي مساء يوم رأيته يجهز راحلة بكل ما يحتاجه المسافر، فقلت: الرجل على سفر، فلما كان العشاء قال لي «غدا تسير القافلة الى بغداد، هذه الراحلة لك بما عليها، وهذا خادم مني يخدمك وهو لك، فاستعد للرحيل، يحفظك الله».

وصل منارة الى الخليفة المأمون وأخبره عن الفتنة وما جرى له من كرم الدمشقي الى أن انتهى به الحال بالعودة سالما الى دار الخلافة، ثم مرت شهور وسنوات، واستدعاه الخليفة وهو يشير الى رجل أسير في حالة رثة، قد ربط بالسلاسل.

قال المأمون: «هذا من أهل الفتنة في دمشق، وغدا سيقتل، لا تأخذه الى السجن، أبقه في دارك في مكان تأمن عليه من الفرار وأحضره غدا صباحا» فأخذه منارة ووضعه في مكان حصين بالدار فلما أحضر اليه طعام العشاء، قال له السجين: «أما عرفتني يا منارة؟».

قال: «من أنت؟».

قال: «أنا صاحبك في يوم كذا وكذا».

لم يصدقه لتغير هيئته، فلم يزل يذكره بمقامه وطعامه وأحاديثهما في الدار فتيقن أنه صاحبه، ثم قال الدمشقي:- «لقد حدثت فتنة مثل تلك التي أخرجتك، وجرى علي مثل الذي جرى عليك حتى تغيرت هيئتي فلم تعرفني، وتقوّلوا علي ما ليس فيّ، وإن أمير المؤمنين قاتلي غدا، فإن أردت معونتي فهناك رجل يقيم في الخان الفلاني، أريد أن أوصي لأهلي بما ينفعهم، ثم خذني الى حيث أمروك، فإنك تكون قد وفيت» فقام منارة الى الرجل وعانقه، وفك قيوده وأحسن إكرامه، ثم قال: «والله ليس شيء أجزيك به عما صنعت بي الا أن أبذل نفسي».

قال الدمشقي: «لقد تقوّلوا علي الكثير، فان تركتني قتلك الخليفة».

قال: «اذهب أنت، واتركني أتدبر أمري».

فقال الدمشقي «لن أبرح بغداد، فإن طلبوني فسأكون في ذلك الخان».

وفي الصباح، رآه الخليفة وليس معه الأسير، فلما أراد منارة أن يتكلم صاح الخليفة «والله، ثم والله، لئن قلت لي إنه هرب لأضربن عنقك أنت».

قال منارة: «والله ما هرب يا أمير المؤمنين، ولكن...» وقص عليه القصص، ثم قال «وهاهو كفني وحنوطي معي، فاقتلني بدلا منه».

قال الخليفة: «ما أسوأ خلقك يا منارة، لقد فعل الرجل معك الذي فعل وهو لا يعرفك، وأنت اكتفيت بإرساله الى الخان رغم الذي فعله معك، قد عفونا عنه، فليأت آمنا لنعلم منه خبر هذه الوشاية»، وجاء الرجل، فأدناه الخليفة وشكره على صنيعه مع منارة، وتوثق أن ما سمعه عنه هي وشاية حاسد، فأعاده الى بلاده مكرما، قائلا: «إن خشيت على نفسك فاكتب الينا»، ثم وصل الى الخليفة كتاب منه يطمئنه على استتباب أموره، فنادى: «يا منارة، هذا كتاب من صاحبك الدمشقي».